المقاومة الثقافية الشعبية للاستعمار الفرنسي

د.عبد القادر خليفي

جامعة وهران.

غزا الفرنسيون الجزائر سنة 1830 وشن جيشهم حربا ضروسا ضد الشعب الجزائري الذي وجد نفسه في مواجهة قوات عسكرية ضخمة منظمة ومسلحة تسليحا حديثا، بعد أن انسحبت حكومة الداي من الميدان على اثر اتفاقية الجزائر في 5 جويلية 1830.

وباستسلام الداي تُرك الميدان السياسي فارغا، فانتشرت الفوضى والفتن في الوقت الذي كان العدو الفرنسي يتوسع في البلاد شرقا وغربا وجنوبا، متبعا أسلوب القتل والسلب والنهب ضد السكان، مخترقا بذلك ما أخذه على نفسه من عهود في احترام مقدسات السكان وأعمالهم، عندما وقّع الضابط الفرنسي دي بورمون، قائد الحملة الفرنسية على الجزائر، مع الداي حسين ما يعرف باتفاقية الجزائر المذكورة سابقا. فتحركت الأنفة الوطنية والغيرة الدينية، مستنهضة الهمم ومحرضة النفوس على الجهاد والقتال[1]، والاضطلاع بدور المقاومة لحماية الحوزة الترابية والمصالح المادية والقداسة الدينية.

وقد تعددت المواجهات وتنوعت مقاومات الشعب الجزائري للقوات الفرنسيـــة، دفاعا عن النفس ومواجهة الخطر الداهم.

معنى المقاومة :

المقاومة هي رد فعل ضد قوة أجنبية معتدية. وبما أن الإنســـان مجبـــول بطبعه على أن تكون له ذاتية وطبع وخصوصية، فإنه لن يتحمل فقْدَ هذه الذاتية والخصوصية بسهولة، بل إنه سيعمل كل ما في وسعه من أجل الحفاظ عليـــــها والدفاع عنها من أجل البقاء والاستمرارية، وأنه سيقاوم كل من يريد أن يسلبه هذه الخصوصية.

لقد كان الشعب الجزائري آمنا في بلده ووطنه، يمارس حياته اليومية تحت ظل حكومة إسلامية، وعندما غزا الفرنسيون بلاده سنة 1830، بهدف استغـــلال الأرض والسكان، كان لابد من التصدي لهذا العدو الأجنبي الصليبي، الذي أصبح يشكل خطرا كبيرا على وجوده، فكانت المقاومة.

بدأ الشعب الجزائري مقاومته الأولى للغزو الفرنسي بالأسلوب نفسه الذي اتبعـــه الغازي الأجنبي، وهو الأسلوب الحربي. ورغم فشل هذا الأسلوب أمـــام القـــــوة المادية للعدو الأجنبي، فإن الشعب لم يفقد الأمل، بل ظل يقاوم بالأسلوب نفســـــه طيلة قرن من الزمن.

وأمام قوة العدو المادية، استغل الشعب الجزائري كل إمكانياته ووسائـــله دفاعا عن الذات. ومن بين تلك الأساليب نجد المقاومة الثقافية التي لعبـــت دورا هاما في الحفاظ على الهوية الوطنية والدفاع عنـــها، وإفشـــال المـــخططـــات الاستعمارية.

لماذا المقاومة الثقافية ؟

لقد جاءت المقاومة الثقافية للشعب الجزائري ردا على السياسة الاستعمارية المتبعة تجاهه منذ الاحتلال سنة 1830 حتى الاستقلال سنة 1962 .

فقد عمل الاستعمار الفرنسي، منذ حلوله بالجزائر، على القضاء على مقومات الشعب الجزائري الثقافية، فأغلق المدارس وتابع المعلمين واستولى على كثير من المساجد والزوايا التي كانت أماكن للتعليم الديني والدنيوي في آن واحد، وألحق مؤسسات الأوقاف ، التي كانت تمولها، بالأملاك التي استولى عليها. وبذلك حرَم الجزائريين من نور العلم. أما المدارس التي سمح لها بالاستمرار في عملها فقد حرَّم عليها تدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها، كما حرّم تدريس أبواب الجهاد في الفقه الإسلامي.

وبذلك انعكست الأوضاع رأسا على عقب. فبعد أن كانت المدارس الرسمية منتشرة في كل قرية ومدينة، يؤطرها رجال نابهون "استطاعت ثقافة الاستعمار أن تغزو مراكز الثقافة القومية وأن تقصيها من المدارس والجامعات ثم بدأت تشوهها في عقول المواطنين وأذواقهم،"[2] ليقتدوا بالمستعمر الغازي فيأخذوا ثقافته ونظمه. وقد جعل المستعمر من اللغة الفرنسية شرطا لتقلد الوظائف والحصول على لقمة العيش، بينما أصبحت اللغة العربية لغة أجنبية لا تفيد ولا تشبع من جوع.

لقد تم فرض الأمر الواقع على الجزائريين، فأجبروا على الرضوخ لسلطة سياسية واقتصادية وقانونية ولغوية معينة، كانت لها نتائج خطيرة على الميدان الثقافي. فقد وقَع تتبع المعلمين والأئمة وشيوخ الطرق الصوفية، وضُيق

عليهم بالمراقبة الدائمة والملاحقات القضائية والمتابعات القمعية، ومنعوا من أداء واجباتهم الثقافية وسط المجتمع الجزائري، وشرد بعضهم إلى مناطق بعيدة عن مواطنهم الأصلية، وسجن آخرون وأرغم عدد منهم على العمل لصالح السلطات الفرنسية. كما مُنع فتح المدارس القرآنية في الحواضر التي تتواجد بها مـــدارس فرنسية، وأصبح تنقل المشرفين على الثقافة لا يتم إلا برخصة تسلمها سلطات الاحتلال.

وفي المقابل فتح الفرنسيون مدارس للغة الفرنسية، وحاولوا استمالة السكان الأهالي إليها بهدف دمج المجتمع الجزائري المسلم بالمجتمع الفرنسي والقضاء على مقدسات الشعب الأساسية. وقد صرح أحد الضباط الفرنسيين في هذا المجال بقوله: "إن إيالة الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعد أن تصبح لغتنا لغة قومية فيها، وحتى تتأقلم فيها الفنون والعلوم التي يقوم عليها مجد بلادنا.. والمعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية مـــحل اللغـــة العربـــية تدريجيا، ومتى كانت اللغة الفرنسية لغة السلطة والإدارة، فإنها سوف لا تلبث أن تنتشر بين الأهالي، ولاسيما إذا وجدت مدارسنا إقبالا من الجيل الجديد."[3]

ونتيجة لهذه السياسة الاستعمارية وخططها الرامية إلى سلب الشعب الجزائـــري مختلف مقومات شخصيته وبخاصة اللغة العربية والدين الإسلامي وعملها على نشر لغة الغازي وديانته، قام الشعب يقاوم ذلك بكل ما أوتي من قوة.

وقد تمثلت المقاومة الثقافية الشعبية في مجالين أساسيين هما:

1- المقاومة في المدارس والزوايا.

2- المقاومة بالكلمة الشفوية.

1- المقاومة في المدارس والزوايا:

عندما عجز الشعب الجزائري عن تحقيق الانتصار ميدانيا على الاستعمار الفرنسي، لجأ إلى وسيلة أخرى يحافظ بها على مقوماته الأساسية خوفا من أن تُسلب منه، فشرع الناس في تأسيس مساجد ومدارس جديدة أوقفوا عليها أوقافا جديدة تسهر على سيرها الحسن، وعينوا لها معلمين ورجالا كرسوا حياتهم لخدمة الثقافة العربية الإسلامية، يوفر لهم السكان وسائل العيش والاستقرار مقابل ما يقدمونه لأبنائهم من علم وثقافة، وهذا يعني أن الهدم لم يكن شاملا، فقد بقيت تجمعات ثقافية وعلمية تقليدية هنا وهناك تأقلمت مع الوضع الجديد، وبذلك تم الحفاظ على اللغة العربية والقرآن الكريم، رغم تواضع مستوى اللغة وتخلفها آنذاك، و لم يقتصر فتح المدارس على المناطق الحضرية، بل شمل حتى البدو الرحل الذين كانت المؤسسة التربوية ترتحل معهم بمعلميها وتلامذتها ومبناها في تنقلاتهم طلبا للماء والكلإ عبر السهوب والصحاري المترامية الأطراف.

لقد تكثفت هذه المدارس في عهد الاستعمار الفرنسي، "كأسلوب ووسيلة لمواجهة سياسة التنصير والفرنسة، وحماية الشخصية العربية الإسلامية للجزائر، ولمقاومة سياسة التجهيل التي كانت تتبعها الإدارة الفرنسية الاستعمارية في البلاد."[4]

واستمرت اللغة العربية رغم فقد الاستقلال السياسي، وما يتبعه من ضغط ومنع، حية تتحرك هنا وهناك، تحت صيانة معلمين بذلوا كل غال للحفاظ عليها ونقلها من جيل إلى جيل، لأنها حاملة ثقافتهم العربية والإسلامية.

ورغم توالي الأيام الصعاب على الشعب الجزائري، فقد بقيت ثقافته في مدن التل وفي السهول الداخلية والصحاري ومداشر الجبال تقيها أياد أمينة.

وكانت المساجد تعطي دروسا في الفقه، يقوم بها فقهاء لإرشاد الناس وتكوين من يخلفهم في وظيفتهم. وكانت الدروس تقدم في أوقات معلومة بعد الصلاة المفروضة، فيحضرها الكبار والصغار، ويمكن للطالب أن ينتقل من مسجد إلى آخر للاستفادة، وليتمكن من حضور أكبر عدد من الدروس.

وكان للزوايا دور كبير في احتضان اللغة العربية والدين الإسلامي، بتعليم العربية وتحفيظ القرآن الكريم، وبما كانت تلقنه لمريديها من تراث شعبي. كما احتفظت هذه الزوايا بمكتبات ثرية، تحتوي على كتب ومخطوطات في مختلف العلوم والفنون التي سيستولي على معظمها الفرنسيون شيئا فشيئا.

وكان تأثير هذه المؤسسات ينتشر إلى مدى واسع من الرقعة الجغرافية للإقليم، وبين قبائل متعددة، متجاوزا حدود الجماعة المرتبطة دمويا ببعضها البعض.

لقد كانت الزاوية مركز تجمع واحتماء، كما "كانت عبارة عن مراكز لمقاومة الغزو الثقافي الذي كان يقوم به المحتل، وللمحاولات التي كانت تقوم بها الكنيسة من أجل التنصير، ولمشاريع الدمج المنتهجة من قبل السلطات الفرنسية في كل الميادين، لجعل الجزائر إقليما فرنسيا وتجريدها من قيمها العربية الإسلامية."[5] وبذلك خلقت هذه المؤسسات الدينية تضامنا وتآزرا واسعا، كان له التأثير الحسن والاستجابة السريعة، عندما تتحول هذه المؤسسات إلى مراكز للقيادة العسكرية الداعية إلى الجهاد لمحاربة

الاستعمار، وبذلك تم الحفاظ على روح المقاومة والبقاء الوطني سماها بعض المؤرخين "غريزة البقاء لدى الجزائريين."

لقد صهرت التجربة التاريخية أبناء الجزائر "وجعلتهم يقفون في أحلك الظروف صفا واحدا لمجابهة مختلف أشكال التفتيت والتمزيق والتشويه خاصة منها التي تسترت وراء المقولات العلمية والتصنيفات الإثنولوجية والإثنوغرافية، وجعلته يزداد تمسكا بلغته العربية ودينه الإسلامي، الذي حماه من محاولات التمسيح والتنصير، وما يحملانه من قيم ثقافية دخيلة."[6]

كانت هذه المدارس والزوايا تمثل نوعا من المقاومة ضد السياسة التي انتهجتها السلطات الاستعمارية، رغم أن تلك المؤسسات كانت تقليدية ضعيفة ومتخلفة، تتبع أساليب عتيقة وغير متلائمة مع ما كانت تشهده الساحة الدولية من تطور، مما ضيق من أفق المتعلمين الفكري، وأدى إلى سيادة التخلف الذهني والاجتماعي. لقد تمسك الجزائريون "بالجانب الآخر من المقاومة وهو الجانب الحضاري، فلم يتنازلوا للفرنسيين عن مقاليدهم الحضارية بالسهولة التي توقعها هؤلاء، وهنا تظهر في الواقع عبقرية الشعب الجزائري وعبقرية الإسلام في المقاومة."[7]

فمقاومة الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي لم تقتصر على حمل السلاح ومواجهته بالقوة فحسب، بل كانت المقاومات متعددة الأشكال وكانت المؤسسات الثقافية الشعبية أحد أهم عناصر هذه المقاومات. لقد "عاد الجزائريون إلى وسائلهم القديمة في التعليم، باللجوء إلى الكتاتيب والزوايا التي وإن لم تعطهم علما نافعا في الدنيا، فإنها أشبعت نهمهم الروحي، وظلت تربطهم بماضيهم، كما أعطتهم سلاحا قويا في استمرار

عمليـــة المقاومـــة، والوقوف ضد ذوبان الشخصية الوطنية في شخصية المستعمر."[8]

أما المدارس التي أقامها الفرنسيون، فإن اســـتجـــابة السكان لها كانت جد هزيلة، رغم المغريات التي قُدمت للتلاميذ الذين التحقـــوا بـــها. "لقد كان هدف التعليم الفرنسي الموجه للجزائريين من البداية متصفا بطابع التحدي الديني واللغوي والحضاري."[9]

ولذا قاومه الجزائريون بكل ما أوتوا من قوة. ولقد بلغ بأحد الجزائريين أن أظهر تأسفه أمام أحد الموظفين الفرنسيين على الـــمدارس التي كانت تعلم "سِيدِي خْليلْ"، لأن الجـــزائريـــين اعـــتبروا ذهاب أبنائهـــم إلـــى تـــلـــك المدارس مسخ لشخصيتهم العربية الإسلامية، وأن ذلك سيؤدي بهم إلى المروق من حوزة الدين، وامتزاجا بالفرنسيين "الكفار" وبأخلاقهم. وقد تحملوا نتيجة لذلك الامتناع كل العواقب، المتمثلة خاصـــة في الطرد من أوطانهم، أو الخسارة في أموالهم، "على أننا نعلم أن الهيمنة الثـــقافـــية، وهي أشد ما تكون مكرا وخداعا، لا يمكن إلا أن تكون أشد ضررا وأكثر فسادا وأعمق أثرا من السيطرة السياسية والعسكرية."[10]

لقد كانت الزاوية و المعلم "الطالَب"[11] يمثلان قوة معـــتبرة داخـــل المجتمع الجزائري، "لم يكن هذا المعلم رجلا منعزلا، بل كان رجلا يقاتل منفردا للدفاع عن التقاليد الإسلامية، وهو مهيكل وموجه غالبا من قبل طريقة صـــوفية. إن تأثيره كان أكبر من تأثير معلم المدرسة الفرنسي، فهو المعلم، وهو الذي ينادي للصلاة ويؤم الناس فيها، وهو المكلف بتطبيبهم بالتمائم وتلاوة بعض الآيـــات على المرضى من الناس والأموات في الجنائز. وهو المكلف

بشؤون العائلات لأنه يعرف القراءة، فيلتجئ إليه شيخ القبيلة لفك رموز رسائل رئيس المكتب العربي، إنه ليس عالما، لكنه العالم الوحيد، هو نور القبيلة وحكيمها."[12]

إنه رجل محترم من قبل كل أفراد القبيلة، سواء كان يحفظ القرآن كله أو بعض أجزائه، وهو مقدم لديهم في كل الأحوال، حتى وإن كان لا يفهم ما يقرؤه.

كان هذا المعلم ينتقل من مكان إلى آخر ومن قبيلة إلى أخرى، يعلم أبناء هذه الجماعة لينتقل إلى غيرها للقيام بالدور نفسه. لقد رأى الفرنسيون في هذا المعلم المتنقل، أفضل وسيلة لنقل الأخبار المسيئة إليهم. يقول أحد رؤساء المكاتب العربية: "لقد فوجئنا عدة مرات بتلك السرعة التي يتلقى بها الأهالي أحداثا جديدة ، وقعت على مسافات بعيدة، هي أخبار لا نستطيع معرفتها نحن إلا بعد مرور ثلاثة أيام أو أربعة."[13]

ولقد حافظ هؤلاء المعلمون على اللغة العربية والقرآن الكريم بتعليمهما لأطفال القرى والدواوير الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة والعاشرة وحتى الرابعة عشر من عمرهم أحيانا، يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم، ويوفر أفراد القبيلة معيشة هؤلاء المعلمين، كما يوفرون لهم حجرة أو خيمة كمدرسة. وإذا كان أبناء الفقراء لا يطول بقاؤهم في هذه المدارس فيتعلمون بعض المبادئ البسيطة فقط، فإن أبناء متوسطي الحال يتمكنون من البقاء مدة أطول، فيحفظون أحزابا مهمة من القرآن الكريم.

كان هؤلاء المعلمون يعيشون كسادة في سعة عيش وشرف، إلا أن الوضع المزري للجماهير الشعبية جعل البعض منهم يفر بعيدا، بعد أن نضبت

موارد عيشهم، بالإضافة إلى المضايقات التي كانوا يلاقونها من قبل السلطات الاستعمارية، أما من بقي منهم فكان عليه تحمل شظف العيش إلى جانب إخوانه من أفراد الشعب الجزائري.

2- المقاومة بالكلمة الشفوية

لقد عاد الشعب الجزائري- كما يقول سعد الله- إلى وسائله التقليدية البسيطة والمتوفرة، فعمد إلى الطرق القديمة في التعليم والتعبد، وعمد أيضا إلى التعبير الشفوي الذي لا طاقة للاستعمار في التحكم فيه، بعد أن غُيبت الثقافة المكتوبة وحوربت من قبل المستعمر، أما ما بقي من ثقافة فقد ضعف مستواها ومثلتها طائفة من الأدباء والشعراء الذين استغلوا ذلك لأغراض محدودة كالمدح والرثاء والمدائح النبوية. ولقد بلغ ببعضهم نتيجة الاستكانة والضعف أن مدح قادة فرنسيين.[14]

لجأ الشعب الجزائري إذن إلى التعبير عن نفسه بالكلمة الشفوية تُسجِّل وتنقل كل صغيرة وكبيرة، وتَولَّد عن كل حدث حكاية أو شكوى ينقلها الشعراء والقصاصون من مكان إلى آخر، تنقلها الركبان وتتلقفها الأذهان لتعبر عن وضع مأساوي تعيشه الجماهير الشعبية وتتفاعل معه.

لقد تحرك الشعراء "المداحون" ينتقلون من قرية إلى قرية ومن سوق إلى سوق، فتجتمع حولهم الجماهير في حلقات من التواصل الحقيقي، يعلقون على الانتصارات وينهجون بها ويرثون الهزائم، مذكرين بالغزوات الإسلامية ومحولين الهزائم إلى انتصارات، ومؤكدين للجماهير الشعبية أن إرادة الله ستبعث أحد الأبطال المحررين في وقت قريب. "إن الخطاب الأدبي الشفوي ..قدر له

أن يكون الوسيلة الوحيدة التي تمتلكها الجماهير الشعبية من أجل إدراك العالم ونقل المعرفة وتوجيه السلوك."[15]

لقد تم إحياء القصص والسير الشعبية التي ظلت جامدة، وأصبحت تؤدي دورا جديدا بتنظيم العلاقة بين الأفراد، وحفظ التوازن النفسي بينهم وإعطاء معنى لوجودهم وعلاقتهم بالمؤسسات القائمة. إن "فلكا ثقافيا جديدا يأخذ مكانه شيئا فشيئا، ويتغذى من الماضي المعاد تحليله انطلاقا من الوضع الاستعماري الراهن ومن أشكال المقاومة." [16]

كانت هذه المغازي والقصص الإسلامية تتغذى بأمجاد العهود الأولى الإسلامية، فتشرح الفتوحات الإسلامية وتمدح أبطال الجهاد والفاتحين لبلاد الكفر والوثنية، في نصوص شعرية شعبية، تُشرح نثرا بأسلوب شفوي بسيط وبلهجة عربية محلية، تجد صداها لدى الجمهور المتعطش إلى مثل هذه المآثر، التي تنسيه همومه اليومية، فتنفس عن واقعه الأليم، وتمكنه من استعادة ماضيه الزاهر ورفض واقعه المنحط. فكانت هذه المآثر الشعبية إذن، عامل تعبئة ورعاية للقضية الوطنية بطريق غير مباشر، لتقوية إيمان المترددين والسخرية من المتخاذلين.

فـ "الكافر" المحتل لابد من الانتصار عليه وطرده مثلما فعل أوائل المسلمين بانتصارهم على أعدائهم، ذلك أن "النموذج الأمثل هو عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، وسيبقى هذا النموذج أمثل في مخيالنا وفي أحلامنا وتطلعاتنا، هذا لاشك فيه."[17]

لقد كان دور هؤلاء الرواة "المداحون" هو توعية الجماهير الشعبية يقول أ. سعد الله عن نضال هؤلاء: "وقد ناضلت النخبة التقليدية الجزائرية

بواسطة الأدب الشعبي والقصص الوطني والتعلق الغامض بالماضي، ولكن قبل كل شيء بواسطة تحميس الفخر الوطني."[18]

لقد لعب "المداحون" في الأسواق والمواسم دور الموجه والمنظم لثقافة الجماهير الشعبية في مختلف جهات القطر، يحيون أمجاد الماضي ليستثيروا حماس الناس.

فأبطال الإسلام الأوائل كالإمام علي وخالد بن الوليد وعبد الله بن جعفر وغيرهم، هم أبطال هذه المغازي، يجوبون ساحات القتال فيقهرون أعداءهم "الكفار"، فتعلو راية الإسلام مرفرفة خفاقة.

والمداحون في مغازيهم هذه التي يقدمونها لجمهورهم، لا يعزلونها عن حاضر الناس، بل يقارنون بين الأوضاع الراهنة المزرية وبين أوضاع المسلمين الأوائل، ليثيروا العواطف ويلهبوا الهمم.

يذكر الضابط ديسبارميه في مقال له "أن ظهور رواة المغازي بالجزائر قد ابتدأ في منتصف القرن التاسع عشر، بعد هزيمة مواطنيهم، وأنهم ظلوا يرددون المغازي بكاء على مجد أسلافهم الغابر، وإحياء للشعور الوطني، مما خلق روحا جديدة لدى العامة- فسرها الضابط- بأنها كره للأجنبي بدون مبرر."[19]

وقد اهتم العلماء الفرنسيون منذ الاحتلال بهذا الشعر الشعبي "لأنه في نظرهم يعبر عن حقيقة الروح الجزائرية المقاومة لاحتلالهم. وقد حاربت السلطة الفرنسية المداحين أو القوالين، وراقبت نشاطهم، لأنهم كانوا نقلة هذا الشعر ومروجيه، وكان معظمهم من الشعراء المرتجلين.."[20]

لقد سجل الشعــراء الشعبيون المعارك التي خاضها الشعب الجزائري في كل سهل وجبل، وفي كل تل وواد، سجلوا أحداثها وانتصاراها وانتكاساها سجلوا بطــولات رجالــها وانسحاهم أو استشهادهم. فهم في كثير من الأحيان مؤرخــون بشــكل مــن الأشكال منذ بداية الاحتلال، مرورا بمختلف الأحداث الهامة، إلى أن استردت البلاد حريتها واستقلالها.

وهاهو الشاعر الشعبي عبد القادر الوهراني يرثي الجزائر بعد احتلالها من قبل الفرنسيين في قصيدة طويلة، منها:

الأَيامْ ياخْواني تْــبَدّلْ ساعاتْــها والدهْــر يَنقْلَبْ ويْوَلّي في الحينْ
بَعْد انْ كان سَنْجاق البهْجَة وَاوْجاقْها الاَجْناسْ تْخافْها في البَرْ وْبَحْرين
مْنينْ رادْ رَبي واوْفَــى ميجــالْــها واعْطاوْها اهْلْ اللــهْ الصالِحيــن
الفَرْنْسيــس حَرّكْ لْــها وخْــذاها لاَهــي مْياتْ مَرْكَب لاَهي ميتين
بَسْــفايْنه يَفْرَصْ البْحَــرْ قْبــالْهــا كي جا مَنْ البْحَرْ بَجْنودْ قْوِيّــنْ
غابْ الحْسابْ وَادْرَكْ وَتْلَفْ حْسابْها الرومْ جاوْا لَلْبَهْجَــة مَشْتَــدّيــنْ
رانِي عْلَــى الجَزايَر ياناسْ حْزينْ.[21]

ويقول الشاعر الشعبي محمد بلخير موجها كلامه إلى قبيلة أولاد سيد الشــيخ يستنهض هِمم أفرادها بعد أن قام الفرنســيون بهدم قبــة جدهم:

اوْلادْ رَحْلْ البيْضا سَبْعيــن دُوّارْ ماعْطــاوْا عْــلى بوهُم ساعَة وْلاَ يُوم
لَوْ لْقِيتْ رْفاقَة نْجيبْ عْليهْ مَشْوارْ وْماكانْ شِي العَسْكَرْ غَيْرْالقُومْ في الْقُومْ[22]

لقد كان الشاعر الشعبي هو صوت الجماهير وإذاعتها المتنقلة. وهاهو شاعــر شعبي مجهول يسجل مقاومة المقراني في قصيدة نقتطف منها مايلي:

قــال العْــزيزْ الحَــدّادْ يالكِــرامْ يالاَجْــوَادْ

مَــنْ الظُّــلْــمْ وَالفْــسادْ شعْــبْنَــا نَنْــقْــذوهْ
فُــرْســانْ غْزارْ شْــدَادْ فــي وْجُــوهْ العْنَــادْ
نَحَّــفْروا له الاَلْــحادْ نَــخْلِــيوْا دارْ بُــوهْ
الــمُقراني بَسْــلاحْ عَــوَّلْ عْلَى الكِــفاحْ
قــامْ وْدارْ البَــرّاحْ يَاأهْلي المُــوتْ خِيرْ.[23]

وقد واصل الشاعر الشعبي وراوي القصص والغزوات في الأسواق والمواسم الشعبية دوره التعبوي دون كلل إلى أن استقلت البلاد سنة 1962. كان آخرها ما قيل أثناء الثورة التحريرية في المجاهدين وزعمائهم بالتغني ببطولاتهم وذم الفرنسيين وجيوشهم الظالمة وبذلك كان "الشاعر هو المجسد الحقيقي للتحول الثوري، من منطلق أن التعبير الثوري هو البعد اللغوي للثورة.."[24].

خـــلاصـــــة

كانت المدارس والزوايا إذن، ملجأ مُهما اعتصمت به اللغة العربـيـة والقرآن الكريم من عواصف البطش والهيمنة، وتمكنت بفضل معلمين مجدين من الصمود والبقاء. "وقد كانت تمثل خطا موازيا للثقافة الفرنسية، إلى أن ظهرت الحركة الإصلاحية، فاشتد التنافس بين الثقافتين، وساعد ظهور الأحزاب الوطنية على دعم هذه المقاومة."[25]

أما الكلمة الشفوية فقد حافظت على روح المقاومة عن طريق شعـراء شعبيين حاولوا إحياء المجد الغابر واستنهاض الهمم وبعث النشاط والحيوية في أوساط الجماهير الشعبية. لقد كان الشاعر الشعبي في القمة، قام بدور القائـد الموجه والواعظ المرشد. لم يكن "رجل قلم ولا ينتمي إلى الحيـز الثـقافـي الكتابي، بل الشفوي الذي لا توجد قواعده معروضة في الكتب، بل مدونة في الذاكرة الجماعية، قواعدُ لا يتم تعلمها في المدرسة، بل في الحيـاة الـيومية للجماعة، والتي يحفظ أسرارها وينقلها المسنون...هو شاعر عضوي وصوت الجماعة الذي تحيا الجماعة به الحاضر، كجماعة موحدة عبر نقـل هويتـها التاريخية." [26]

هكذا إذن كانت الكلمة وستبقى دائما دعامة للكفاح المسلح وروحا ينبض بالحياة مذكرا بالوطن والوطنية حين يخفق صوت السلاح. لقد كانت عوامل الاختلاف كبيرة بين أمتين تنتميان إلى حضارتـين مختلفتين من حيث المصادر والخصائص عكس ما كان يروجه دعاة الدمج من شعارات هدفها إلحاق الجزائر بفرنسا، ولذلك تمكـن الشعـب الجزائـري من الصمود بوسائل مختلفة في وجه عدو لا يرحم، فحافـظ عـلى خصوصـيته وذاتيته

ولم يتمكن ذلك العدو من دمجه وإلحاقه ببلده، رغـــم وسائله الضخمة المتطورة.

الـــــــهوامـــــــش

1- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط:4، دار الحداثة، بيروت،1980،ص:285.

2- أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص:78.

3- إسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986، ص: 10و11.

4- يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مجلة الثقافة، العدد: 63، ماي-جوان 1981، ص: 13 و14.

5 -أنظر:

- BenYoucef Benkhedda : Abane–Ben M'hidi : Leur apport à la Révolution Algérienne. Edition Dahleb. Alger 2000. p:63.

6 - محمد العربي ولد خليفة، واقع الحركة الثقافية، الملتقى الرابع للفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر في سبتمبر 1980.

7- أبو القاسم سعد الله سعد، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998 ص: 287.

8-أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص:27.

9- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، ص: 287.

10- بوعلام بسايح، الثقافة الإفريقية: طموحات ومتطلبات، مجلة الثقافة، العدد:96، نوفمبر ديسمبر 1986.

11- الطالَبْ بالمعنى العامي، هو المعلم في الكتاتيب، أو هو المعلم التقليدي لأطفال القبائل والقرى.

12-أنظر:

21- جلول يلس والحفناوي أمقران، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1975، ص:36.

22- قصيدة: وَايْنْ راكُمْ يَالاَبْطالْ، نشر مصلحة الثقافة بولاية البيض، 1988

23- جول يلس والحفناوي أمقران، المرجع السابق، ص:16.

24-محمد حسن عبد الله، الوجه النضالي للأغنية الشعبية الفلسطينية في الكويت، مجلة الثقافة العدد:14/ ماي- يونيو 1984.

25- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، ص: 18.

26- عبد القادر جغلول، المرجع السابق. ص:16.